

## الفصل الرابع بعث أسامة

لم تكن نذر الانتفاض في بلاد العرب لتخفى على أبي بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة . وكيف تخفى عليهم وقد كان ما شجر بينهم في سقيفة بني ساعدة جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ؟ ! أفيستى خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله في شأنها ؟ أم تراه يجرى على خُطة الرسول في تأمين التخوم بين العرب والروم ، تاركاً أمر هذه الفتنة الداخلية إلى تطور الحوادث ؟ .

أول أمر أصدره  
الخليفة الأول

لقد كان أول أمر أصدره بعد أن تمَّت له البيعة بالخلافة أن قال :  
« لَيْسَتْ بَعَثُ أُسَامَةَ » .

وأسامة هو قائد الجيش الذي أمر النبي بتجهيزه من جليّة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذي كان بينهم وبين المسلمين في مؤتة وفي تبوك . ذلك أنه ، عليه السلام ، كان يخشى دائماً أن يدهم الروم المسلمين ، متأثرين بما بين الدين الناشئ ودينهم المسيحي من خلاف ، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فاسطين بعد أن أجلاهم النبي عن المدينة ، وعن تباء ، وفدك ، وعن أكثر المواطن التي كانوا يقيمون بها . ولعل ما حدث بمؤتة وتبوك جعله يضاعف العناية بحماية التخوم العربية الرومية . فقد سار جيش المسلمين إلى مؤتة فاستشهد من قواده زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم داور خالد بن الوليد بالجيش حتى عاد به إلى المدينة سليماً وإن لم ينتصر . وقد سار عليه السلام على رأس المسلمين إلى تبوك ، فكانت مسيرته نذيراً حمل خصومه على التراجع إلى ما وراء حدودهم دون قتال . لا عجب وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم أن يجهز النبي جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز

هذا الجيش بعض سياسته في تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ذوى البأس في ذلك العهد .

وكان أسامة حدتًا لما يبلغ العشرين . وإنما ولّاه رسول الله على الجيش ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه بمؤتة ، وما يعود الشباب الاضطلاع بجسام التبيعات . ولقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدأروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح ، وأن يُسمن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك دراكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانمًا مظفرًا .

وصية رسول الله  
إلى أسامة بن زيد

تذمر كثير من منذ اليوم الأول من تعيين حدت كأسامة على رأس جيش يضم جيلة المهاجرين والأنصار وتحدثوا في ذلك . صحيح أن أسامة كان موضع عطف النبي منذ طفولته ، وأنه لُقّب لذلك « حِبَّ النبي وابن حبه » . ولقد بلغ من إعزاز النبي لإياه أن أردفه وراءه عند ذهابه إلى مكة في العام الثامن للهجرة وأدخله معه الكعبة . وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته ، حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين في طريقهم إلى أحد ، وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه . ثم إنه أبلى من بعد في حنين أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد . لكن المتذمرين كانوا يرون ذلك شيئًا ، وتبرّأ إمارته جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين شيئًا آخر . ولقد بلغ تذمرهم النبي وهو في مرضه الأخير وجيش أسامة مقيم بالجرف يتأهب للمسير ، فأمر نساءه فأراقوا عليه سبع قراب من ماء حتى تنزل عنه الحمى ، ثم خرج إلى المسجد وقال بعد أن حمد الله وصلّى على أصحاب أحد : « أيها الناس ، أنفدوا بعث أسامة . فلعمري لئن قلت في إمارته لقد قام في إمارته أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة وإن كان أبوه لخليقًا لها » .

حب النبي لأسامة  
ابن زيد

تذمر كثيرين  
لتوليته إمارة  
الجيش

ولما اشتد المرض بالرسول لم يتحرك جيش أسامة من الجرف . روى عن أسامة أنه قال : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أصممت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على ، فأعرف أنه يدعو لي » . وفي

ساعة الصبحو الذى سبق وفاة الرسول صبح يوم الوفاة استأذنه أسامة فى السير بالجيش فأذن له . لكن حدوث الوفاة بعد سويحات ردّ أسامة والجيش إلى المدينة كرتة أخرى ، ثم كان أسامة مع أهل البيت الذين تولوا جهاز الدفن ، فكان هو وشقران مولى النبي يصبان الماء على جثمانه وعلى يغسله وعليه قميصه .

تصميم أبى بكر  
على بعث أسامة

فلما أمر أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة بعد أن تمت بيعته عاد المسلمون إلى تدمرهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة للخلاص من موقف لم يرضوا عنه ، ورأى بعضهم ما كان من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وما تراه إلى المدينة من أنباء العرب واليهود والنصارى وتحفزهم بعد موت النبي للوثبة بالمسلمين وبدينهم ، فقالوا يرجهون الكلام إلى أبى بكر : « إن هؤلاء جلّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . قال أبو بكر : « والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تمخّطننى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » .

وقيل إن أسامة لمّا رأى ما عليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبى بكر فيستأذنه فى أن يعود بالجيش ليكون عوناً على المشركين فلا يستخطفون المسلمين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبى إلا أن نمضى ، فأبلغه عنّا واطلب إليه أن يولّى أمرنا رجلاً أقدم سنّاً من أسامة » . وأبلغ ابن الخطاب أباً بكر رسالة أسامة ، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائرته وقال : « لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أمّا رسالة الأنصار أن يولى عليهم رجلاً أقدم سنّاً من أسامة فقد وثب لها أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال مغضباً : « ثكّلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ! . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! » . ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال : « امضوا ، ثكّلتكم أمهاتكم ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله » .

هذا الحديث فى رواياته المختلفة يصوّر لنا سياسة أبى بكر أول ما تولى

« لا أدع أمراً  
يصنعه رسول الله  
إلا صنعته »

الخلافة. وهذه السياسة تتلخص في قوله لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبتة بميراثها عن أبيها : « إني والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته . وهو قد أعلنها إلى الناس ساعة قال لهم : « لَيْتُمْ بِعَثُ أُسَامَةَ . أَلَا لَا يَبْتَقِينَ » بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف . فقد وقف بينهم خطيباً بعد أن ردّ المعارضين منهم وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا أَنَا مِثْلَكُمْ ، وَإِنِّي لَا أَدْرِي لِعَلَّكُمْ سَتَكَلَّفُونِي مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطِيقُ . إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ وَعَصَمَهُ مِنَ الْآفَاتِ . وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ . فَإِنْ اسْتَقَمْتُ فَتَابِعُونِي ، وَإِنْ زُغْتُ فَقَوِّمُونِي . وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ قُبِضَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ ضَرْبَةَ سَوْطِ فَمَا دُونَهَا . أَلَا وَإِنْ لِي شَيْطَانًا يُعْتَرِينِي ، فَإِذَا أَتَانِي فَاجْتَنِبُونِي . . . » ثم حثهم على العمل الصالح قبل أن يجيء أجلسهم ، وأن يعتبروا بالآباء والإخوان ، وألا يغبطوا الأحياء إلا بما يغبطون به الأموات .

إنما أنا مُتَّبِعٌ ولست بمبتدع ، ولن أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ؛ هذه سياسة الخليفة الأول . ولأبي بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته . فهو قد صحب رسول الله على ما رأيت منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيماناً لا يكبو ولا يتزعزع ، وكان لاتصاله القلبي والروحي برسول الله يعرف من أمره ما لا يعرفه غيره . وهو وحده الذي قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته : « إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه . وإنني لو كنت متخذاً من العباد خايلاً لاتخذت أبا بكر خيلاً . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده . » وأنت قد رأيت من صحبته وإخائه وإيمانه في حياة النبي ما لم يبالغه عمر ولا علي ولا أحد غيرهما من أمسّ المسلمين به صلى الله عليه وسلم صلةً وقربى . فلا جرم كان اتباعه النبي اتباعاً صحيحاً صادراً عن إيمان وبيئة ؛ إيمان يجعله مطمئناً إلى أنه لن يُخطئ ما اتبع الرسول ، وبيئة تجعله يسلك الطريق التي يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها .

سمع الناس مقالة عمر بعد عودته إليهم بالجرف يبلغهم رسالة أبي بكر ،

أبو بكر يشيع  
جيش أسامة

فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة طوعاً أو كرهاً . وخرج أبو بكر بعد ذلك حتى جاء العسكر ، فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماش وأسامة راكب ليزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليماً . وكأنما غلب أسامة الحياء أن يرى هذا الشيخ الوقور صاحب رسول الله وخليفته على المسلمين يسير إلى جانبه ، ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف ، فقال : « يا خليفة رسول الله ، والله لتركن أو لأنزلن » ، قال أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ! » . فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر .

لعمر ما عسى أن يقول المتذمرون بعد هذا الصنيع وقد بايعوا أبا بكر بالأمس ليسيلى أمر المسلمين جليله ودقيقه ! . والذين أذعنوا من قبل كرهاً لم يسعهم بعد هذا التصرف الحكيم إلا أن يرضوا أو يتعرضوا للقاله ويبتهموا بالآثرة . وكثيراً ما كان للخوف من رأى الغير فينا وحكمه علينا سلطاناً على تصرفاتنا وأعمالنا يعدل سلطان اقتناعنا الذاتي ، وإن اختلفت البواعث وتباينت النيئات .

وأن لأبي بكر أن يودع الجيش ، فوقف في رجاله خطيباً وقال :  
 « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة . وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقعدون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالظعن والطاعون » .

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش : « اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم . ابدأ ببلاد قضاة ، ثم ائت آبل ، ولا تقصرن في شىء »

من أمر رسول الله ، ولا تعجلنَّ لِمَا خَلَّفْتِ عَنْ عَهْدِهِ .

وسار الجيش وعاد أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى المدينة . سار هذا الجيش وقائده الشاب على رأسه يقطع البيد ويتخطى المفاوز في هذه الأيام الشديدة القيظ من شهر يونية . وبعد عشرين يوماً من مسيرته بلغ اللقاء حيث تقع مؤتة ، وحيث استشهد زيد بن حارثة وصاحبا جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة . هناك نزل أسامة بعسكره فأغار على آبل ، وبث خيوله في قبائل قضاة ، وقضى على كل من وقف في وجهه من أعداء الله وأعداء رسوله قضاءً لا يعرف هودة ولا رحمة . وكان شعار المسلمين وصيحتهم في الحرب ذلك اليوم : « يا منصور أميت » .

مسيرة الجيش  
إلى اللقاء .

قتل المسلمون أثناء هذه الغزاة ، وأسروا ، وأحرقوا القرى التي قاومتهم ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا . بذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين في مؤتة ، وبذلك نفذ أمر رسول الله أن يوطئ الخيل تخوم الباقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عمية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلاً ، وأن يُحرقهم بالنار ، وقد أتم ذلك ذاك فام تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فلما أتمه عاد بالجيش مظفراً إلى المدينة ممتطياً الجواد الذي مات أبوه عليه .

قضاء أسامة  
على أعداء الله  
ورسوله

عاد بالجيش الظافر إلى المدينة ، لم يُغره النصر باقتفاء أثر أعدائه أو باقتحام تخوم الروم والتوغل في ديارهم . وعاد وقد زادت حداثة سنه في جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تدمروا من قبل لإمارته يحدثون مفاخرين بحسن بلائه وعظيم إقدامه ، ويرددون مؤمنين قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

عاد أسامة ظافراً  
إلى المدينة

ولم يدُر بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه . ذلك أن السياسة التي جرى عليها رسول الله والتي كانت ماثلة في نفوس المسلمين جميعاً ، كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم ، فلا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود أو غير اليهود ممن كانوا يأترون بالمسلمين .

وكان ذلك طبيعياً ، إذ كان الروم لا يزال اسمهم يزلزل الشعوب بسعة

إمبراطوريتهم ونفوذ سلطانهم ؛ لم يغير من ذلك ما كان بينهم وبين العرب من نزاع كانوا فيه أصحاب الكلمة العليا إلى السنوات الأخيرة من حياة النبي . ألم يذهب دحية الكلبي بكتاب رسول الله إلى هِرَقْل ، وهِرَقْل في أوج نصره ، في السنة السابعة من الهجرة ، أي قبل وفاة النبي بسنوات ثلاث ، فرأى من قوة الروم وبأسهم ما رأى ! أو لم يذهب اليهود في هذه السنة السابعة إلى فلسطين بعد هزيمتهم في خيبر وفي فدك وتيماء ، وقلوبهم كلها الحفيظة على محمد وعلى من اتبعه ، يأتمرون لتأليب الروم عليهم كيما يقاتلوهم ويظفروا بهم كما قاتلوا الفرس وظفروا بها . لا جرم إذن أن يقف المسلمون من سياستهم عند حماية تخومهم من اعتداء الروم ، وأن يكرّر أسامة ، بعد أن تم له النصر على أعدائه ، راجعاً إلى المدينة ليقف إلى جانب أبي بكر والمسلمون معه ، دون أن يدور غزو الروم بخاطره أو خواطرهم ، ودون أن يتوقع أحد منهم أن هذا الغزو سيبدأ بعد سنتين اثنتين ، يَبْدُوهُ أبو بكر بحكم الحوادث ثم يُتِمِّمَهُ خلفاؤه ، فيكون فيه القضاء على هذه الإمبراطورية الرومية التي ظلت قرونًا مرهوبة الجانب تعنو لكامتها الجباه وتتصدع من هول بأسها العروش .

أبو بكر يتلقى  
أسامة بظاهر  
المدينة

عاد أسامة إذن بالجيش الظافر ، وبلغ ظاهر المدينة ، فتلقاه أبو بكر ، وكان قد خرج في جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقاءه وكلهم فرح وتهلل ؛ وتلقاه أهل المدينة الذين خفوا في أثر أبي بكر وأصحابه بصيحات السرور والإعجاب والتقدير لبسالته وبساله جيشه . ودخل أسامة المدينة تحيط به هالة من فخار النصر ، فقصده من فوره إلى المسجد حيث صلى شكرياً لله على ما أنعم عليه وعلى المسلمين . وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين ، وقيل سبعين ، يوماً من مغادرته إياها .

يحاول بعض المستشرقين أن يهونوا من أمر هذه الغزوة وأن يصغروا من شأنها ، مع ما كان من اغتباط المسلمين بها ولا كبارهم للذين تم لهم النصر فيها . يقول المستشرق « فِئْكَأ » محرر فصل أسامة في دائرة المعارف الإسلامية : « وقد بعث انتصار أسامة البِشْرَ في نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الردّة ، وأصبح لانتصاره من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقة ، بل عدّ

فما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام . وصحيح أن هذه الغزوة ليست جسيمة بالقياس إلى ما نعرف من غزوات اليوم ، وليست جسيمة بالقياس إلى بعض الغزوات التي تمتت في ذلك الحين . فقد اكتفى أسامة منها بأن دهم القبائل التي فجأها وأن غنم منها دون أن يلقى جيش الروم . لكن الأمر الذي لا ريب فيه أنها كانت بعيدة الأثر في حياة المسلمين ، وفي حياة العرب الذين فكروا في الثورة بهم ، وفي حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم . قال أعداؤهم من العرب الذين تسامعوا بهذه الغزوة « لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تُغير على مَنْ بَعُدَ عنهم من القبائل القوية » . وانزعج هيرقل حين بلغته أنباء هذه الغزوة فبعث جيشاً قوياً عسكرياً بالبقاء . وتلك الحججة البالغة على أن الروم والعرب جميعاً حسبوا حساب المسلمين بعد هذه الغزوة التي جعلت عرب الشمال ، فيما خلا دومة الجندل ، لا يلحون في التحرش بالمدينة والانتقاض عليها .

أثر هذا الغزو  
في العرب وفي  
الروم

على أن الأمر لم يكن كذلك فيما سوى الشمال من أنحاء شبه الجزيرة . رأيت من قبل أن قبائل في سائر أنحاء نزعت إلى العصيان في السنوات الأخيرة من حياة النبي ، ورأيت أن جماعة من أهل هذه القبائل ادّعوا النبوة . ولولا الفرع الذي كان يتولى هذه القبائل ويتولى المتنبئين فيها بسبب ما كان النبي يأخذهم به من حزم وما كان المسلمون يبدونه من بأس وقوة لإيمان ، إذن لسرت روح الانتقاض في أنحاء كثيرة . فلما اختار محمد جوار ربه ارتدت العرب إماماً عامةً ، وإما خاصةً في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشترأبت اليهود والنصارى ، واضطرب المسلمون لفتنة نبيهم ولقتلتهم وكثرة عدوهم . فلم يكن بدءاً من سياسة حكيمة حازمة تردّ الأمر إلى نصابه ، وتنصر دين الله في إيمان نشأته .

ردة العرب إما  
عامة وإما خاصة

وهذا ما صنع أبو بكر حين جرّد أبطال المسلمين لحروب الردة ، وللقتضاء على الثائرين بدين الله وبخليفة رسوله .